الشرق المريض

يا مَن لهذا المريض المدنَف العاني ... مُرِدَّدِ النفس من آنٍ الى آنِ
اذا رأى الليلَ ظنَّ القبرَ شُقَّ لهُ ... وظنَّ انجمَهُ آثارَ أكفانِ
ويحسبُ الصبحَ بابَ الموت لاحَ لهُ ... وفوقهُ الشمسُ قُفْلٌ فتحهُ داني
يقضُّ على رَمَقٍ فان يعيشُ بهِ ... لكنهُ رمقٌ مهما يعيشْ فاني
مُطرِّحُ الهمِّ في كل الجهات فما ... يرى بكل مكانٍ غيرَ أحزانِ
تؤزُّهُ كيدُ حرّى مُعلَّقةٌ ... من الاضالع في اعوادِ نيرانِ

يا من لهُ إذ يرى الدنيا كما اشتبهتْ ... بقيةُ الحلم في اجفانٍ يقظانِ
يا من لهُ اذ يرى الاشياءَ واهنةً ... كما بدا اثرُ الذكرى بنسيانِ
حيٌّ طريحٌ يراهم يُلحدونَ لهُ ... لم يستقوا أن تراهم منهُ عينانِ
يا من لذا الشرق يا من للطريح على ... لحدِ الزمان بايدي شرِّ اعوانِ
مُستيئسين ولمّا يأملوا أملاً ... واليأسُ داءٌ لنفس العاجز الوانِ
ويسبقون الردى للقبر وهو قضاً ... في الغيب فالعجب لهذا الشان من شانِ
ويدّعون ولا ما يدّعون لهُ ... لكنهُ خلقٌ يقضي بإذعانِ
ويسألون المُنى تجري بلا عملٍ ... كالريح جاريةً في غير ارسانِ
سُخفٌ وأسخفُ منهُ وهو معجزةٌ ... وَصْلُهُ أن يُسمّوهُ بايمانِ

يا ويح للشرق من أمرٍ بهِ لَبِكٍ ... كالهيم ملتبسٍ في رأي حيرانِ
من كل مُضلِعة ترمى بمُضلِلةٍ ... رمىَ النحوس لذي بؤسٍ بحرمانِ
تعقّدت والتوت كالمستحيل فما ... تُربك من موضع فيها لإمكانِ
لو صوّروها لكانت صورة امرأة ... مصبوغة من جهالات بألوانِ
رثّوا لذا الشرق يا قومي ممرّضةً ... تحنو عليهِ بإحساس ووجدانِ
تطبُّ روحهُ مما ألمّ بهِ ... فان أقلّ داء الشرق روحاني
يرى عواطفها الأديانَ خالصةً ... اذا تلعّب أهلوهُ بأديانِ

يرى بها عودَهُ عهدَ الملائك في الـ ... بِرِّ الطبيعيِّ في حسنٍ واحسانِ
يرى حناناً كعهد الانبياء وما ... تنشاهُ الروحُ فيهِ منذُ ازمانِ
يرى الفضائل بعد اليأس قد ظفرت ... آمالهنَّ ونالت قلب إنسانِ
ربّوا لهُ الأمَّ يا قومي فهو وُجدت ... في الشرق ما طاح في ذلٍّ واهوانِ
تلك التي ترفع الدنيا وتخفضها ... بطفلها فهوَ والدنيا بميزانِ
تلك السماء التي تُلقي لهم ملكاً ... فلا يربونهُ الاَّ كشيطانِ
تلك التي جعلوها في المنازل كالـ ... ـمرآة مطروحةً في دار عميانِ
ذنبُ الرجالِ ولكنَّ النساء بهِ ... مُعاقباتٌ بآلامٍ واشجانِ
كقبلة العين في آلامها اعتنقت ... والداءُ ما مسَّ منها غير اجفانِ

***

لهفي لجوهرة زهراء ما سطعت ... في جيد غانية او فوق تيجانِ
لهفي لريحانة خضراء ما قُطعت ... إلاَّ لتذبلَ في واحات نسوانِ
لهفي لغانية عذراء ما وُضعت ... الاَّ بمنزلِ اسواء واضغانِ
لكل معنى جميل ما يلائمهُ ... كما تمازجُ الحانٌ بالحانِ
وليس يُطرب صوتُ الماء منحدراً ... كما ترى وقعهُ في سمع ظمآنِ
فيا إلهي اذا اجريتَ في قدرٍ ... يوماً بان يلتقي في الناس ضدّانِ
فاجعل للطفك معنى في التقائهما ... كيلا يكونَ من الضدين زوجانِ
فما خلقتَ كمثل البغض في امرأةٍ ... ينالها رجلٌ يوماً بطغيانِ
ولا خلقت كمثل الذل في رجلٍ ... تسومهُ امرأةٌ سوءاً بعدوانِ

***

يابانيا بقلوب الناس يجعلها ... قصر الحياة تبصّر ايُّها الباني
أسِّس على الحب لا تُلقي القلوب سُدًى ... وَضعْ لكل فؤادٍ شكلهُ الثاني
فلستَ تبني سوى دارٍ اذا خَرِبَتْ ... اركانها خربت من كل عمران
دارُ السعادة دارُ الحبِّ دارُ مُنًى ... أحبابٍ دارُ الترام الخالد الماني

من حديث القمر

محمد صادق الرافعي